■ الباب الاول

الكابوس

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

أخبرتني أمي أنها عندما كانت حاملاً بي هجم ذات ليلة جماعة من فرسان الكلوكلوكس كلان علي منزلنا في اوماها بولاية نبراسكا . أحاطت تلك الجماعة بالمنزل وهي تشهر المسدسات والبنادق ويصرخ أفرادها طالبين خروج أبي لمقابلتهم . قامت أمي نحو الباب الخارجي ووقفت حتى يرو أنها حامل وأخبرتهم أنها وحدها مع صغارها الثلاثة وأن والدي كان بعيدًا يلقي مواعظه في مدينة ميلواكي . حينها صرخ رجال الكلان في وجهها مهددين ومنذرين أن علينا أن نغادر المدينة لأن المسيحيين البيض « الطيبين » لن يقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون علي أبي وهو يثير القلاقل بين زنوج أوماها الطيبين بحديثه ووعظه عن دعوة «العودة لأفريقيا » التي يحتضنها ماركوس جارفي .

كان والدي -الأب إيرل لتل – قسًا معمدانيا وداعية مخلصًا « لمنظمة تحسين أوضاع الزنوج العالمية » التي يتزعمها ماركوس جارفي . وكان جارفي من رئاسته في هارلم يرفع شعار نقاء الجنس الأسود ويدعو جماهير الزنوج للعودة إلي القارة الأم ووطنهم إفريقيا يعاونه في ذلك حواريون مخلصون كأبي وجعلت تلك الدعوة من جارفي أكثر رجل أسود مثار جدل في العالم .

ركض رجال الكلوكس كلان بخيولهم حول منزلنا يحطمون زجاج النوافذ بمؤخرة بنادقهم وهم يصرخون ثم ساروا بعيدًا واختفوا في الظلام فجأة كما جاءوا تلمع مشاعلهم من خلفهم .

طاش أبي غضبا عند عودته وقرر أننا سنبقي فقط لحين أن أولد أنا الشيء الذي كان متوقعا بعد حين. ثم تترك العائلة المكان. لا أدري لماذا قرر أبي ذلك لأنه لم يكن زنجيًّا جبانًا مثلما كان الكثيرون من الزنوج حينها وما زال كثيرون كذلك اليوم . كان أبي رجلاً ضخما فارع الطول – ستة أقدام وأربع بوصات ولونه في سواد الفحم كما كانت عينه واحدة وحتى اليوم لا أدري كيف فقد عينه الأخرى . نشأ أبي في مدينة رينولدز بولاية جورجيا حيث ترك الدراسة بعد الصف الثالث أو ربما الرابع وكان يؤمن بما كان يؤمن به ماركوس جارفي بأن الرجل الزنجي لن يحقق أبدًا الحرية والاستقلال واحترام الذات لنفسه طالما بقي في أمريكا ولذا علي الزنوج أن يتركوا أمريكا للرجل الأبيض ويعودوا إلي أفريقيا أرض أجدادهم . من الأشياء التي دفعت أبي إلى أن يغامر بحياته وينشر هذه الأفكار بين قومه هي أنه شاهد أربعة من أخوته الستة يقتلون . ثلاثة منهم علي يد الرجل الأبيض وأحدهم عُلّق من شجرة . ما لم يكن أبي بعلمه حينها أن واحداً فقط من بين ثلاثة الإخوة الباقين علي قيد الحياة سيموت موتاً طبيعياً وذلك هو العم جيم . في مستقبل الأيام أطلق البوليس الشمالي الأبيض الرصاص علي العم أوسكار ثم قتل أبي لاحقاً علي يد الرجل الأبيض .

كنت دائماً أؤمن بأنني أيضاً سأموت مقتولاً يوماً ما ولذا فقد أعددت عدتي لذلك بقدر ما أستطيع.

كنت سابع إخوتي إذ كان لأبي ثلاثة أطفال من زوجته السابقة – (إلا وإيرل وماري) الذين يعيشون في بوسطن. تعرف أبي على أمي وتزوجها في فيلادلفيا حيث ولد طفلهما الأول وأخي الشقيق وِلْفْرِد. من فيلادلفيا انتقل والداي إلى أوماها في التاسع عشر من مايو ١٩٢٥ وكان عمر والدتي حينها ثمانية وعشرين ربيعاً. ثم انتقلنا إلى ميلواكي حيث وُلد رِيجْنالد والذي كان يعاني منذ طفولته من فتاق جعله معاقاً بقية حياته.

كانت أمي – لويز لِتِل – التي ولدت في غرانادا في جزر الهند الغربية تشبه النساء البيض في شكلها ولونها لأن أباها كان رجلاً أبيض. كان شعرها أسود ناعماً ولكنتها لا تشبه لكنة الزنوج. لم أكن أعرف شيئاً عن أبيها الأبيض إلا عارها والتبرؤ منه. وما زلت أذكر كيف كانت تقول : إنها سعيدة لأنها لم تره أبداً. لقد ورثت منها بشرتي البرونزية وشعري البرونزي اللون وكنت في اللون أكثر إخواني قرباً للبياض. (في مستقبل الأيام في نيويورك وبوسطن كنت واحداً من ملايين الزنوج الذين وصلت بهم البلاهة حد الاعتقاد أن لون بشرتهم الفاتح يمنحهم مركزاً اجتماعيًا أعلى، وأنهم لذلك من المحظوظين. ثم بعد سنوات تعلمت أن

أكره كل نقطة من دم المغتصب الأبيض في بدني).

بقيت عائلتنا فترة وجيزة في مدينة ميلواكي لأن أبي كان يبحث عن مكان يمكنه أن يزرع فيه غذاءه بنفسه وربما يبدأ فيه تجارة ما، لأن فلسفة ماركوس جارفي كانت تؤكد على الاعتماد على النفس والاستقلال عن الرجل الأبيض. انتقلنا بعد ذلك إلى مدينة لانسِنْج في ولاية ميشجان ولا أدري لم اختارها أبي. اشترى أبي منزلاً في لانسينج وبعد مدة قصيرة بدأ كعادته يقوم بالوعظ في كنائس المعمدانيين الزنوج في أيام الآحاد وينتقل أثناء الأسبوع من مكان لآخر ناشراً دعوة جارفي.

بدأ أبي يدخر بعض النقود ليشتري متجراً كان دائماً يحلم به عندما بدأ بعض الزنوج من نوع العم توم (المنافق) كعادتهم في الوشاية به وبأفكاره الثورية عند الرجل الأبيض في المدينة. هذه المرة أتت التحذيرات والتهديدات بترك المدينة من جماعة حقد محلية تسمى « الكتيبة السوداء» والتي كانت تتكون من رجال بيض يلبسون أثواباً سوداء بدلاً من أثواب الكلوكس كلان البيضاء. بعد زمن قصير بدأوا يعترضون أبي في كل مكان وينادونه «بالزنجي المتطلع » ويسخرون من حلمه بامتلاك متجر وبسكنه خارج منطقة الزنج ونشره الأفكار «الخبيثة» بين الزنوج الطيبين.

ومثلما حدث في أوماها حملت أمي مرة ثانية بأصغر أخواتي، يفون، وبعد مولدها بفترة قصيرة تكرر ذلك الكابوس الذي شهدناه في عام ١٩٢٩ وذكراه مازالت حية في ذهني كأولى ذكرياتي. أتذكر كيف انتزعت أنا من مرقدي فجأة لأجد نفسي وسط هلع وضجيج وعويل وأصوات رصاص ودخان وحرائق. كان أبي يصرخ وهو يصوب بندقيته نحو رجلين من البيض وهما يفران بعد أن أشعلا النار. كان بيتنا يحترق من حولنا ونحن نركض ونقفز وتتلاطم أجسادنا ونحن نحاول الخروج والنجاة. بعد ثوان من بلوغ أمي ساحة البيت وهي تحمل طفلها انهار المنزل مشتعلاً من ورائها. أصبحنا خارج المنزل في ملابسنا الداخلية في بكاء وعويل شديدين حينما حضر رجال البوليس البيض ورجال المطافئ ووقفوا يتفرجون على بيتنا يحترق.

تمكن والدي من إحضار ملابس لنا وإقناع بعض أصدقائه بإيوائنا عندهم مؤقتاً قبل أن ننتقل إلى منزل آخر في أطراف مدينة شرق لانسنج. في تلك الأيام لم يكن مسموحاً للزنوج بالظهور بعد حلول الظلام في الجزء الرئيسي من مدينة شرق لانسنج الذي كان موقع جامعة ولاية ميشجان المشهورة. ذكرت كل ذلك بعد عدة سنوات لمنتدى طلابي في تلك الجامعة عندما تحدثت فيها في يناير ١٩٦٣ (كما قابلت فيها

أخي الأصغر – روبرت – لأول مرة بعد سنوات حيث كان يعد دراسات عليا في علم النفس .) حدثتهم عن كيف تحرشت بنا مدينة شرق لانسنج إلى أن اضطررنا للانتقال مرة أخرى وهذه المرة إلى خارج المدينة بمسافة ميلين وداخل الريف. هنا بنى لنا أبي بيديه منزلاً من أربع غرف وهنالك ترعرعت وبدأت أعي الأشياء.

أذكر أن أبي أُستدعي بعد الحريق وسئل عن البندقية التي أطلق منها النار على البيض الاثنين اللذين أشعلا النار، وهل عنده تصريح باقتنائها. كان رجال البوليس يأتون إلى منزلنا من آن لآخر ويدخلون بلا إذن مدعين أنهم فقط في مرور عادي وأنهم يبحثون عن سلاح مفقود ولكنهم لم يعثروا قط على بندقية أبي (التي رفضوا ترخيصها) لأن أمي كانت قد حاكتها داخل وسادة. أما المسدس والطبنجة الصغيرة فكانا في مكان بارز لأنهما كانا لغرض صيد الطيور والأرانب والكل يمتلك مثلهما.

بعد ذلك أذكر الشجار بين أبي وأمي فقد كانا دائماً على خلاف وأحيانًا كان أبي يعنفها ويضربها. ربما كان ذلك بسبب أن أمي كانت امرأة متعلمة والمرأة المتعلمة لا تستطيع أن تمنع نفسها من تصحيح زوجها. كانت حينما تأتيه بتلك الألفاظ المنمقة يهاجمها رأساً.

كان أبي رجلاً عنيفاً مع كل أطفاله إلا معي. كان يضرب كبار إخوتي بعنف إذا خالف أي منهم أوامره وكانت أوامره كثيرة بدرجة يصعب معها معرفتها كلها. كل العقاب الذي لقيته تقريباً مصدره أمي وقد فكرت كثيراً في أسباب ذلك. أعتقد أن أبي مع كراهيته للبيض كان لا شعورياً ينحاز لأطفاله ذوي البشرة الأكثر بياضاً لأن الرجل الأبيض قد غسل مخ السود تماماً. وكنت أنا طفله ذا البشرة الفاتحة اللون. هنالك كثير من الآباء الزنوج يعاملون أطفالهم ذوي البشرة البيضاء لا شعورياً أحسن من معاملتهم للآخرين ويرجع ذلك إلى تقليد العبودية الذي يضع المولاتو (مُوَلَّد) في مرتبة أعلى لأنهم أقرب لوناً للرجل الأبيض وبذا فهم «أفضل ».

أما صورتا أبي الأخيرتين في ذهني فهماً له خارج المنزل. إحداهما عن دوره كواعظ معمداني فهو لم يكن واعظاً مرتبطًا بكنيسة معينة بل كان دائماً «واعظاً زائراً ». أذكر على وجه الخصوص موعظته المفضلة « أن القطار الأسود الصغير في الطريق إلينا وخير لكم أن تضعوا أموركم على الصواب ». أظن أن هذه تتناسب مع ارتباطه بحركة العودة لأفريقيا وشعار ماركوس جارفي « القطار الأسود العائد للوطن ». كان أخي فِلْبِرْت الذي يكبرني مباشرة يحب الكنيسة أما أنا فكانت تحيرني وأفكاري مشوشة حيالها. كنت أجلس جاحظ العينين وأنا

أراقب أبي يقفز ويصرخ وهو يعظ والمصلون يقفزون ويصرخون من خلفه بينما أجسامهم وأرواحهم تغني وتصلي. حتى في ذلك العمر اليافع لم أكن أستطيع أن أؤمن بالرؤية المسيحية ليسوع كشخص قدسي ولم يكن بمقدور أي شخص متدين أن يحادثني إلى أن صرت في العشرينات من عمري وكنت حينها في السجن. لم يكن عندي أدنى احترام لمثلي الأديان.

من خلال دوره كواعظ كان لأبي اتصال شديد بزنوج مدينة لانسنج. صدقني حينما أقول أن أولئك الزنوج كانوا أسوأ حالاً في ذلك الوقت ومازالوا كذلك اليوم ولكن بطريقة مختلفة. أعني بذلك أنني لا أعلم عن مدينة أخرى بها هذه النسبة الكبيرة من الزنوج القانعين والمضللين من زنوج « الطبقة الوسطى » – النوع المعروف الذي يجري خلف المركز الاجتماعي واللاهث وراء الاندماج في المجتمع الأبيض. قبل عهد قريب كنت أقف عند مدخل الأمم المتحدة أتحدث إلى دبلوماسي أفريقي وزوجته حينما تقدم مني زنجي قائلاً: « أتعرفني؟ » شعرت حينها بشيء من الإحراج على أساس أنه شخص مفروض فيّ أن أعرفه ولكن اتضح أنه واحد من المتحذلقين المتفاخرين من زنوج « الطبقة الوسطى » في لانسنج. لم أنبهر طبعًا فهو واحد من هؤلاء الزنوج الذين لم يكونوا ليربطوا إسمَهُم بأفريقيا إلا عندما أصبحت موضة مصادقة الأفارقة من علامات المركز الاجتماعي لزنوج الطبقة الوسطى.

في ذلك الوقت كان الزنجي الناجح في مدينة لانسنج هو النادل أو ماسح الأحذية وقمة النجاح أن تكون ساعياً في أحد المتاجر الكبرى في وسط البلد. أما « الصفوة » و « عِلية القوم » ولسان حال المجموعة فهم نادلو نادي لانسنج الاجتماعي وماسحو الأحذية في مبنى البلدية. والزنوج الوحيدون الذين كانت بحوزتهم نقود يعتد بها كانوا ممن يعملون في المراهنات أو في كازينوهات القمار أو الطفيليين الذين يتعيشون من جمهرة الفقراء. في ذلك الزمن لم يكن مصنع عربات الأولدز موبيل أو مصنع عربات ريو في المدينة يستأجر أي زنجي. (هل تذكرون عربات الريو؟ كانت تصنع في لانسنج وكان ر.أ. أولدز – الرجل الذي اسم عربة الأولدز من اسمه – يسكن أيضاً في لانسنج. عند قيام الحرب استأجرت المصانع بعض الزنوج لأعمال النظافة فقط). كانت أغلبية الزنوج تعيش من المعونة الحكومية أو تجوع.

كنا فقراء إلى درجة أن عائلتنا كانت لا تبقي فضلات طعام ولكننا في نفس الوقت كنا أحسن حالاً من أغلب زنوج المدينة لأننا كنا نزرع غذاءنا بأنفسنا في الريف. كنا أحسن حالاً من زنوج البلدة الذين يهتفون أثناء مواعظ أبي يحلمون بالجنة في العالم الآخر بينما يستمتع الرجل الأبيض بجنته هنا على الأرض. كنت

أدرك أن ما يجمعه المصلون لأبي هو مصدر غذائنا وكسائنا الرئيسي بالإضافة إلى الأعمال المتفرقة الأخرى التي كان يؤديها أبي. إلا أن أشد ما كان يشعرني بالفخر هو حملاته الدعائية وخطبه التي تدعو إلى أفكار ماركوس جارفي. بالرغم من حداثة سني كنت أحس أنه يقول كلاماً خطيراً يجعله شخصاً صعب المراس وقد سمعت مرة سيدة عجوز تقول لأبي: « إن ما تقوله يخيف هؤلاء البيض ».

أحد الأسباب التي جعلتني أعتقد أنني كنت ابن أبي المفضل هو ما أذكره من أنني كنت الابن الوحيد الذي يأخذه معه أحياناً لاجتماعات « جمعية جارفي لإصلاح وضع الزنوج » والتي كانت تعقد في منازل مختلفة. لم يكن يحضر هذه الاجتماعات كل مرة سوى عدد قليل لا يفوق العشرين شخصاً ولكن حشرهم في غرفة جلوس كان يجعل العدد يبدو كبيراً. كنت ألاحظ سلوكهم ومع أنهم كانوا نفس الناس الذين يصرخون ويقفزون في الكنيسة إلا أنهم كانوا يتكلمون في تواضع بحذر وذكاء وكان نفس الشعور ينتابني وأنا بينهم.

ما زلت أذكر حديثهم عن : « طرد آدم من الجنة إلى كهوف أوروبا » « وأفريقيا للأفريقيين » و « اصحوا أيها الأثيوبيون » وحديث أبي عن كيف أن أفريقيا قريباً سيحكمها الزنوج، الرجال السود كما كان دوماً يردد. « لا أحد يدري متى ستكون ساعة خلاص أفريقيا. لقد هبت ريحها ! إنها قادمة ويوماً كما العاصفة ستكون هنا ! ».

أتذكر رؤية صورة ماركوس جارفي الكبيرة اللامعة تتبادلها الأيدي وكان أبي دائماً يحمل معه إلى هذه الاجتماعات مجموعة من هذه الصور في مظروف كبير. كانت الصورة تظهر ما يبدو أنه ملايين من الزنوج يسيرون صفوفاً خلف جارفي وهو في عربة أنيقة يرتدي حلة عسكرية لامعة موشاة بالذهب وقبعة ذات أرياش طويلة. كنت أسمع أن له أنصاراً ليس في أمريكا فحسب بل في جميع أنحاء العالم. وفي نهاية الاجتماع كان أبي يقف ويردد جملة معينة يهتف بها الجميع من خلفه: « فلتنهض أيها الجنس القوي وحقق ما تشاء ! ».

لا أدري لِم لم يخطر ببالي أبداً أن أفكر بشعوب أفريقيا السوداء وأنا أسمع مثل هذه الأشياء. كانت صورة أفريقيا في ذهني حينها هي صورة بدائيين عراة وأكلة لحوم البشر، قرود وأسود وغابات كثيفة.

كان والدي يقود عربته السوداء ويأخذني معه أحياناً إلى اجتماعات في أماكن متفرقة في منطقة لانسنج. أتذكر اجتماعًا نهاريًّا مرة (كانت أغلب الاجتماعات تتم في الليل) في مدينة أوسو التي تبعد أربعين ميلاً من لانسنج والتي كان الزنوج يسمونها « المدينة البيضاء » (أكثر ما أشهر أوسو هو أنها موطن توماس ديوي زعيم

الحزب الجمهوري). كان محظوراً على الزنوج زيارة المدينة في المساء مثلما كان الأمر في مدينة شرق لانسنج وفي أغلب مدن ولاية ميشجان ولذا كان الاجتماع يتم نهاراً. كان لكل مدينة صغيرة زنوجها المحليون بأعدادهم الصغيرة وأحياناً تكون أسرة واحدة فقط مثلما كان في مدينة ميسون عاصمة المقاطعة وكانت تلك الأسرة هي أسرة ليونز الذي كان نجم كرة قدم مشهور في مدرسة ميسون الثانوية ولذا حظي بشيء من التقدير مكنه من أن يقيم فيها ويشتغل ببعض الأعمال اليدوية التافهة.

كانت أمي لا تهدأ من العمل فهي دائماً تعمل: تطبخ، تغسل، تكوي، تنظف وتشكو من ثمانية أطفال وكانت دائماً إما في جدل مع أبي أو في مقاطعة كلامية معه. كان أحد أسباب الخلاف بينهما هي أنها كانت لا تريد لنا أن نأكل أشياء معينة مثل لحم الخنزير والأرانب الذين كان أبي يحبهم بشدة. كان أبي من زنوج جورجيا الذين يؤمنون بأن نأكل كثيراً مما يسمى اليوم في هارلم « غذاء الروح ».

ذكرت أن أمي هي التي كانت تضربني – على الأقل حينما كانت تصل درجة لا تهتم معها بما يقوله الجيران لأنني كنت دائما وعند أول إيماءة منها بأنها ستعنفني - أصرخ ملء فمي معلنًا للعالم الخطر المحدق بي وإذا كان هنالك شخص على مقربة كانت أمي تدعني وحالي أو تضربني ضرباً خفيفاً. حينما أفكر بذلك الآن أعتقد أن نفس السبب الذي جعلني ابن أبي المفضل هو أيضاً السبب الذي جعل أمي تكرهني، ذلك هو لوني الفاتح نسبياً. كانت هي بيضاء البشرة ولكنها كانت تفضل عليّ أبناءها الأكثر سواداً. «ولفرد» كان ابنها المدلل. كانت تقول لي: « اخرج إلى الهواء الطلق ودع الشمس تعطيك لوناً أبهى .» كانت تضغط على نفسها حتى لا أصاب بعقدة العظمة من لوني وأنا متأكد أنها ما عاملتني كذلك إلا أنها لم تنس كيف جاءها ذلك اللون الأبيض.

تعلمت منذ صغري أن الصراخ يأتي بنتيجة . كان إخوتي حين يحضرون من المدرسة ويطلبون قطعة كعك بالزبدة أو شيئاً ما، ترفض أمي بهدوء أما أنا فكنت أصرخ وأقفز إلى أن أحصل على ما أريد. كانت أمي تقول لي لماذا لا تصبح ابناً مطيعاً مثل ولفرد ولكني كنت أقول لنفسي أن طيبة «ولفرد »هي التي تجعله ينام جائعاً. تعلمت في طفولتي أنك إذا أردت شيئاً فعليك أن تثير زوبعة لتحصل عليه.

كانت لنا حديقة كبيرة نربي فيها الدجاج وكان أبي يحضر الفراريج الصغيرة وتتعهدها أمي بالرعاية. كنا جميعاً نحب الدجاج وكان ذلك من الأطعمة التي لا جدال حولها مع أبي. هنالك حادثة خاصة أتذكرها جعلتني ممتناً لأمي لأني عندما سألتها أن تكون لي حديقتي الخاصة رضيت أن تكون لي قطعة صغيرة من

الحديقة. أحببت تلك القطعة وتعهدتها بالرعاية وغرست فيها البازلاء وكم كنت فخوراً حينما أطعمنا منها مرة. كنت أنزع الحشائش من حول البازلاء بيدي وأنثني باحثاً عن الدود والحشرات لأدفنها بجانبها وأحياناً حينما أنتهي من نظافة الحشائش أستلقي على ظهري بين صفوف الزرع شاخصاً ببصري نحو السماء الزرقاء والسحب المتحركة وتمر بذهني شتى الأفكار.

عندما بلغت الخامسة بدأت الذهاب للمدرسة مع «ولفرد ، وهِلْدا ، وفلبرت » حيث كنا نغادر المنزل سوياً في الصباح. كنا نذهب إلى مدرسة بلِزَنْتْ جروف التي بها من الروضة حتى الصف الثامن والتي كانت تقع على بعد ميلين خارج المدينة. لم تكن هنالك مشكلة في قبولنا لأننا كنا الزنوج الوحيدين في المدينة ولم يكن السكان البيض يمانعون في قبول عدد بسيط من الزنوج لأن ذلك لم يكن يمثل خطراً كبيراً في رأيهم. أما بالنسبة للأطفال البيض فلم يكن ذلك يمثل أمراً عظيماً. كانوا ينادوننا بـ « زنجي » و « الداكن » و « راستوس » بكثرة ظننا معها أن تلك هي أسماؤنا الطبيعية. لم يكونوا يرون في ذلك إساءة بل أمراً طبيعياً اعتادوا عليه.

بعد ظهر أحد أيام عام ١٩٣٩ عدنا أنا وفلبرت وهِلْدا ووِلْفِرْد عندما وجدنا أبي وأمي في إحدى شجاراتهم. في تلك الأيام كان هنالك توتر وإزعاج بسبب تهديدات « الكتيبة السوداء ». أحضر أبي أحد الأرانب من مزرعتنا وطلب من أمي أن تعده للأكل فقد كنا نرعى الأرانب ونبيعها للبيض. أخذ الأرنب من القفص ونزع رأسه بيده إذ أن أبي كان قويًا لدرجة أنه لم يكن يحتاج لمدية يقطع بها رؤوس الأرانب والفراريج. بقبضة من يده أخذ الأرنب من عنقه ولوى رأسه ثم رمى الأرنب الجريح تحت قدمي أمي. كانت أمي تبكي وهي تسلخ الأرنب ولكن أبي في ثورة غضب خرج ودفع الباب من خلفه بقوة وبدأ السير نحو المدينة. في تلك اللحظة رأت أمي رؤيا إذ أنها كانت امرأة غريبة ذات حدس قوي بما سيحدث كما كان أغلب أطفالها كذلك فيما أظن. كان ينتابني دائماً شعور غريب قبل أن يحدث شيء ما ولا أذكر أن شيئاً حدث من غير أن أتوقعه إلا مرة واحدة. حدث ذلك بعد سنين عديدة حينما انكشفت لي أشياء عن رجل كنت على استعداد قبل ذلك الاكتشاف أن أضحي بحياتي من أجله.

بعد فترة من خروج أبي بدأت أمي تركض نحو الباب وتصرخ باسم أبي: إيرلي إيرلي ! قبضت على مريلتها بيد واندفعت نحو الطريق. التفت أبي ورآها ولسبب ما لوح نحوها بيديه رغم غضبه ولكنه استمر في السير.

أخبرتني أمي بعد ذلك بسنوات أنها رأت نهاية أبي في الرؤيا. قضت أمي بقية

النهار على غير عادتها تبكي في عصبية وحرقة. أكملت أمي طهي الأرنب ووضعته في الجزء الدافئ من الفرن وجلست تنتظر وعندما حان وقت نومنا ولم يعد أبي بدأت أمي تضمنا وتشمنا وانتابنا شعور غريب ونحن لا ندري ما تفعل لأنها لم تفعل مثل ذلك أبداً من قبل. أذكر أنني صحوت على صراخ أمي وحينما قفزت من سريري خارجاً وجدت رجال الشرطة في غرفة جلوسنا وهم يهدئون من روع أمي بينما هي تضع معطفها لتخرج معهم. أما نحن أطفالها فقد كنا نحدق في صمت من غير حاجة لأن نعرف أن شيئاً رهيباً قد ألم بأبينا.

أخذ رجال الشرطة أمي إلى المستشفى ، إلى غرفة يرقد فيها أبي ومن فوقه ملاءة ولم تجرؤ أمي على النظر إليه لأنها كانت تخاف من ذلك. ربما كان من الحكمة أنها لم تنظر ناحيته لأن جمجمة أبي كانت ترقد محطمة في جانب السرير كما أخبروني بعد ذلك. كان زنوج لانسنج دائماً يهمسون أنه قد هُوجم ثم رمي جسده على قارعة الطريق حتى يظن أن عربة الترام دهسته. كان جسده قد قطع إلى نصفين. عاش أبي لمدة ساعة ونصف في تلك الحالة فزنوج ذلك الزمن كانوا أقوى جسداً من زنوج اليوم خاصة زنوج ولاية جورجيا لأن الصراع من أجل البقاء يتطلب ذلك.

كانت الدنيا صباحاً حينما وصلنا الخبر أن أبانا قد مات وكان عمري حينها ست سنوات وما زالت في ذهني صور باهتة لجلبة شديدة والبيت يعج بأناس يبكون ويرددون بمرارة أن «يد الكتيبة السوداء» طالته أخيراً وأمي تهذي في غرفة النوم بينما جمع من النساء يضع النشادر تحت أنفها.

استمرت أمي في الهذيان حتى يوم الدفن وذكرى الجنازة غير واضحة في ذهني ولكن ما أذكره هو أنها لم تكن في كنيسة وذلك شيء غريب أدهشني لأن أبي كان واعظاً وقد رأيته قبلا يلقي مواعظه في الجنائز داخل الكنيسة لكن مراسيم جنازة أبي تمت في مكان حانوتي.

أذكر أيضاً أن ذبابة حطت على وجه أبي أثناء تأدية شعائر الجنازة وكيف قفز «وِلفِرْد» من مقعده وهشها بعيداً ثم عاد إلى كرسيه والدموع تجري من عينيه بغزارة. وعندما ذهبنا لنلقي النظرة الأخيرة على أبي في التابوت بدا لي وكأنما وجهه الأسود قد نثر عليه الدقيق وتمنيت لو أنهم لم يفعلوا ذلك.

عند العودة إلى البيت كان هنالك زوار كثيرون استمر سيلهم لحوالي أسبوع بعد ذلك. كان أولئك أصدقاء الأسرة مثل آل ليونز من مدينة ميسون وآل ووكرْز، آل ماكجوير، آل ليكوس، آل جرينز، آل راندولف وآل تيرنر وآخرين من مدينة

لانسنج وأناس من مدن أخرى كنت أراهم في اجتماعات جاري في.

تأقلمنا نحن الأطفال على ما حدث بسهولة أكثر من أمنا. كأطفال لم نكن نشعر بما تشعر به هي عن ما يخبئه الغد. وعندما ابتدأ فوج الضيوف يضمحل بعد ذلك بمدة بدأت أمي تفكر في كيفية تحصيل قيمة بوليصتي التأمين اللتين كان أبي دائماً يفخر بأنه قد أمن بهما على حياته وكان دائماً يرى أن الأسر ينبغي أن تحمي نفسها في حالة الموت. تمكنت أمي فيما يبدو من تحصيل قيمة البوليصة الأصغر قيمة ولا أدري كم كانت قيمتها ولكني أتخيل أن قيمتها لم تكن تزيد عن ألف دولار وربما نصف ذلك المبلغ.

استلمت أمي المبلغ ودفعت جزءاً كبيراً منه لتكاليف الجنازة ثم صارت تذهب إلى البلدة كل يوم وتعود مهمومة. لقد بدأت شركة التأمين التي أصدرت البوليصة الأغلى تماطل في دفع التعويض. كانوا يدعون أن أبي مات منتحراً. بدأت أفواج الزوار تعاودنا مرة أخرى وتتحدث بمرارة عن البيض: كيف يستطيع أبي أن يحطم رأسه ثم يلقي بنفسه تحت عجلات الترام لتجري من فوقه؟!

ذلك ما وجدنا عليه أنفسنا. أم لها أربعة وثلاثون ربيعاً من غير زوج تحتمي به ويرعاها هي وأطفالها الثمانية. غير أن روتين الحياة يستمر وعشنا مستورين إلى أن انتهى مال التأمين الأول. ثم بدأ وِلْفِرْد الذي كان ذا وعي يسلك سلوك الكبار. أظن أنه كان يشعر بما يخبئه الغد بينما لم يكن بقيتنا نحن الأطفال نعي ذلك. كان يخرج ويؤدي أي عمل يجده ثم يعود في المساء منهكاً ويعطي أمي كل ما عنده. كذلك بدأت هِلْدا الهادئة تعتني بأخواتها الصغار. أما أنا وفِلْبِرْت فلم نكن نساهم بشيء فقط نتعارك مع بعض في المنزل وفي المدرسة نتعاون في عراك الأطفال البيض. أحياناً يكون سبب العراك عنصرياً وأحياناً نتشاجر معهم لأتفه الأسباب.

بدأ أخي الصغير رِيجْنالد يميل إليَّ منذ أن بدأ يمشي على رجليه واشتد ارتباطنا ببعض. أعتقد أنني كنت استمتع بحقيقة أنه أخي الصغير الذي يتطلع إلي وهو تحت حمايتي. بدأت أمي تقترض لتتحصل على الحاجيات رغم أن أبي كان يكره الاقتراض ويقول إنه الخطوة الأولى نحو الاستدانة ويعيد إلى العبودية. بعد ذلك بدأت تعمل بنفسها. كانت تذهب إلى لانسينج وتبحث عن العمل، أي عمل سواء الخدمة في منازل البيض أو حياكة ملابسهم. لم يكونوا يعلمون أنها زنجية وإلا لما سمح لها كثير من البيض بدخول منازلهم وكانت أمورها تسير على ما يرام إلى أن ينكشف أمرها ويعرفوا من كان زوجها وحينها تفقد عملها. أذكر كيف كانت تعود لنا باكية وتحاول أن تخفي ذلك عنا لأنها فقدت عملاً هي في أمس الحاجة إليه. وأذكر مرة أن أحدنا – لا أذكر من بالضبط – أضطر لأن يذهب لها حيث تعمل

وعندما رآه أصحاب البيت واكتشفوا أنها زنجية طردوها من العمل على الفور وحضرت إلينا تبكي من غير أن تحاول أن تخفي ذلك هذه المرة.

عندما بدأ رجال مصلحة الرعاية الاجتماعية يحضرون إلى منزلنا كنا نراهم يتحدثون إلى أمي ويسألونها ألف سؤال. كانوا يجوبون المنزل وينظرون إليها وإلينا نظرة فيها الكثير وكأننا لسنا بشراً. كانت عيونهم تقول إننا مجرد أشياء وذلك كل ما في الأمر. بدأت أمي تستلم شيكين أحدهما من مصلحة الرعاية الاجتماعية والآخر معاش أرملة وكانت هذه الشيكات تساعد ولكنها لم تكن تكفي مع عددنا الكبير. كانت الشيكات تصل أول كل شهر وأحدهما بالكاد يكفي ديون البقال والآخر لم يكن يبقى طويلاً قبل أن ينفذ. بدأنا في التدهور بسرعة مادياً ونفسانياً إذ أن أمي كانت امرأة ذات كبرياء وصعب عليها قبول الصدقة وانتقل ذلك الشعور إلينا.

كانت أمي تجادل البقال بشدة لتضخيمه الفاتورة مخبرة إياه بأنها ليست جاهلة ولم يكن البقال يحب ذلك. كانت أيضاً ترد بعنف على موظفي الرعاية الاجتماعية قائلة لهم إنها امرأة ناضجة تقدر على تربية أولادها وليس ثمة ما يدعو إلى زياراتهم المتكررة وتدخلهم في شؤون حياتنا ولم يستحسن موظفو الرعاية ذلك أيضاً. إلا أن شيك الرعاية الشهري كان تحت تحكمهم لو أرادوا لحرمونا منه بطريقة ما، ولذا كانوا وكأنما نحن ملكهم الخاص. كم كانت أمي تود أن تمنعهم من المجيء إلى بيتنا ولكنها كانت عاجزة عن ذلك. كان أشد ما يسوؤها هو إصرارهم على الانفراد بنا نحن أبناءها الصغار، كل على حدة، ثم يبدءون يسألوننا عن أشياء أو يقولون لنا أشياء ضد أمنا أو ضد بعضنا البعض.

ما لم نكن نفهمه هو، إذا كانت الدولة على استعداد لمنحنا اللحم والبطاطا والفواكه وجميع أنواع المعلبات لماذا تكره أمنا كل ذلك. لم نكن وقتها نعي ولكن عندما كبرنا عرفنا أنها كانت تحاول يائسة أن تحمي كبرياءها وكبرياءنا.

كان وِلْفِرْد يعمل وكذلك كانت أمي تعمل عندما تجد عملاً، أي عمل. كان هنالك مخبز في لانسينج يمكنك أن تشتري منه بنكلة كيساً طويلاً من الخبز البائت الذي كنا نحمله أنا وأخي ونمشي به مسافة ميلين إلى البيت. كانت أمي تعرف ألف طريقة وطريقة لتطبخ بها أو معها الخبز: صلصة الطماطم بالخبز، ما يشبه توست فرنسية، خبز باللبن مع الزبيب وإذا كانت عندنا شرائح لحم كنا نأكل خبزا بالشرائح. أما بعض الكعك الذي كنا نجده في كيس الخبز، فكنا نلتهمه مباشرة. ولكن كانت تمر علينا أوقات لا نجد فيها حتى تلك النكلة وكان

الجوع يشتد بنا إلى درجة الدوار وحينها تغلي أمنا نبات الطرخشوق لنأكله. ويسخر منا الأطفال بأننا أكلنا حشائش مشوية. في بعض الأحيان وإذا كان حظنا جيداً كنا نأكل عصيدة الحنطة ثلاث مرات في اليوم أو عصيدة في الصبح وخبزاً من الذرة في المساء.

بعد مدة كنا أنا وفِلْبرت قد كبرنا بما فيه الكفاية لنترك الشجار ونحمل بندقية والدنا لنصطاد بها الأرانب التي نبيعها لبعض البيض القريبين وأنا أعلم الآن أنهم إنما كانوا يشترونها منا تصدقاً فقط لأن كل أهل البلدة كانوا يصطادون بأنفسهم. وكنا أحياناً نأخذ معنا رِيجْنالد الصغير الذي لم يكن عوده قد اشتد بعد ولكنه كان فخوراً بحضوره معنا. كنا أيضاً نصطاد الجرذان عند الجدول خلف المنزل كما كنا أيضاً نرقد في صمت عند الجدول إلى أن تظهر ضفدعة مطمئنة فننقض عليها ثم نقطع أرجلها ونحملها لنبيعها لبعض البيض مقابل نكلة لكل زوج منها. البيض لا يضعون أية حدود على ما يأكلون فيما يبدو!

فجأة في أواخر عام ١٩٣٤ بدأت تحدث أشياء. بدأ التدهور النفساني يلف العائلة وبدأت كبرياؤنا تتآكل ربما بسبب معايشة الفقر اليومية. كنا في الماضي نعرف عن عائلات تعيش على المساعدة الحكومية وكنا نفخر بأننا لسنا منهم وأننا لا نقف في طابور الخبز المجاني ولكننا الآن صرنا منهم وفي المدرسة بدأنا نسمع الهمهمة عن وضعنا وأحياناً كنا نسمعها واضحة. وفي البيت كان يبدو أن كل طعامنا عليه خاتم حكومي « ليس للبيع » حتى كدنا نعتقد أن علامة « ليس للبيع » إنما هي ماركة تجارية بينما كانت الحكومة تضعها حتى لا يبيع التجار طعام المعونة الحكومية.

أحياناً بعد انتهاء المدرسة كنت أذهب إلى لانسنج بدلاً من أن أذهب للبيت. كنت أجوب السوق من متجر إلى آخر حيث تعرض السلع مثل التفاح في صناديق وبراميل وسلال وكنت أراقب وانتظر فرصتي وأسرق تفاحة واحدة. أو كنت أقوم بزيارة أسرة نعرفها قبل وقت العشاء وكنت أعلم أنهم يعلمون سبب مجيئي وعادة لا يخيبون آمالي بل كانوا يطلبون مني البقاء لتناول طعام العشاء وحينها كنت أملأ شر وعاء. أما أكثر أسرة كنت أحب زيارتها فهي آل يوهاناس. كانا رجلا وامرأة طيبين ومتقدمين في السن ومتدينين. كنت أشاهدهم يقفزون ويصرخون أثناء موعظة أبي في الكنيسة وكان يسكن معهم ابن أخ لهم يتعهدونه بالرعاية ولقبه « الواد الكبير » وكنت أنا وهو على وفاق. كانت تسكن معهم أيضاً امرأة تدعى مسز أدكوك ترافقهم إلى الكنيسة وكانت امرأة طيبة ذات مروءة تزور المرضى وتحمل لهم الهدايا. قالت لي تلك السيدة جملة لم أنسها أبداً: « هنالك شيء واحد يعجبني فيك. مع أنك شاب لا فائدة

ترجى منه لكنك لا تحاول أن تخفي ذلك. انك لست بمنافق».

مع ازدياد بقائي خارج البيت وازدياد زياراتي للناس وسرقتي من المتاجر، ازدادت ميولي العدوانية. أصبحت لا أطيق الصبر حتى أحصل على ما أريد. كذلك بدأ نموي يتسارع – النمو الجسدي أكثر من العقلي – بدأ الناس يعرفونني في جوانب البلدة المختلفة ثم بدأت أشعر بنظرة غريبة نحوي من جانب البيض وبدأت أحس أن لذلك علاقة بأبي. بدأت أسمع ما كنت أسمعه وأنا في المدرسة، فقط هذه المرة من الكبار. بدأ ذلك بالإيحاء والإيماءة أولاً ثم الهمهمة وأحيانا بصريح العبارة. كانوا يلمحون إليّ أن « الكتيبة السوداء » هي التي قتلت أبي وأن شركة التأمين قد مكرت على أمي برفضها دفع التعويض.

عندما تم ضبطي وأنا أسرق أكثر من مرة بدأ رجال مصلحة الرعاية يركزون عليّ في زياراتهم لمنزلنا. لا أذكر متى أدركت أنهم يتكلمون عن أخذي بعيداً ولكن أول ما أذكره في هذا الخصوص هو هيجان أمي فيهم قائلة أنها قادرة على تنشئة أبنائها. كانت تجلدني بالسوط عندما أسرق فكان صراخي يملأ الحي إلا أن ما أفخر به حتى اليوم هو أنني لم أمدّ يدي متحديًا لها أبداً.

في ليالي الصيف كنا نحن صبيان المنطقة نفعل أشياء كثيرة مثل الذهاب إلى المزارع وسرقة البطيخ. يربط البيض دائماً بين البطيخ والزنوج وأحياناً كانوا يسمون الزنوج بـ «كونز» وبذا أصبحت سرقة البطيخ « كونزتها » وإذا سرق الصبيان البيض البطيخ فهم إنما يحاكون الزنوج في نظر آبائهم. هكذا البيض دائماً يبررون أخطاءهم بلوم الزنوج والسخرية منهم.

في إحدى المرات في عشية « عيد جميع القديسين » (هالوين) خرجنا نحن مجموعة من الصبية نقلب المراحيض الريفية القديمة وكان هنالك مزارع عجوز – يبدو أنه شرب مقالب كافية – أعد لنا مصيدة . كانت الفكرة أن نتلصص من خلف المرحاض ثم ندفعه كمجموعة حتى ينقلب. أزال هذا المزارع المرحاض من فوق الحفرة ووضعه على مقدمتها ثم جئنا نحن نتلصص من خلف المرحاض يقودنا اثنان من الصبيان البيض وكان أن غطسوا في الحفرة حتى أعناقهم. كانت رائحتهم منفرة لدرجة أننا بالكاد استطعنا أن نخرجهم منها. هكذا انتهى عيد الهالوين بالنسبة لنا وكنت أنا محظوظاً إذ أنني كدت أنزلق في الحفرة التي وقع فيها الصبيان البيض. لقد اعتاد البيض على القيادة لدرجة أنها أوقعتهم في حفرة هذه المرة.

وهكذا تعلمت أشياء كثيرة وبطرق مختلفة. كنت مثلاً أذهب إلى المزارع وأقطف الفراولة وفي إحدى المرات عملت طوال يوم كامل أعطوني في نهايته دولاراً والذي كان ثروة كبيرة بالنسبة لي. كنت جائعاً أسير نحو البلدة ممنياً النفس

بوجبة شهية حين أتى صوبي صبي أبيض يدعى رتشارد دكسون أكبر مني عمراً وسألني إن كنت أود أن ألعب « طرة – كتابة » وأعطاني عشرين نكلة صرفا لدولاري ثم بدأنا نلعب وفي نصف ساعة استعاد كل نكلاته ودولاري وبدلاً من أذهب للبلدة لشراء شيء ما، عدت إلى البيت خالي الوفاض أشعر بمرارة. زاد حنقي أكثر عندما علمت بعد ذلك بمدة أنه كان يغش. هنالك طريقة يمكن بها رمي القطعة المعدنية حتى تقع دائما على الوجه الذي يريده راميها وإذا رأيت شخصاً يكسب دائماً فاعلم أنه لا يقامر بل يغش. في مستقبل الأيام كنت إذا وجدت نفسي أخسر دائماً في لعب القمار أبدأ بمراقبة اللاعب الآخر بدقة. ذلك هو حال الزنوج في أمريكا حيث يشاهدون الرجل الأبيض وهو يكسب طول الوقت فالرجل الأبيض مقامر محترف وقد رتب اللعبة حتى يكسب هو ونخسر نحن الزنوج.

في حوالي هذا الوقت بدأ يزور أمي بعض أنصار المذهب السبتي الذين سكنوا في منزل قريب منا وكانوا يتكلمون بالساعات عندما يحضرون ثم يتركون الكتب والمنشورات والمجلات من ورائهم لتقرأها أمي. كانت أمي تقرأها وكذلك أخي وِلفِرْد الذي كان قد عاد للمدرسة بعد أن بدأنا نتلقى الإعانة الغذائية. كان رأس ولفرد دائما غارقاً بين دفتي كتاب. بدأت أمي تقضي وقتاً طويلاً مع السبتيين وأعتقد أن ما جذبها نحوهم هو قيودهم على الطعام التي كانت تفوق قيودها. كانوا مثلنا لا يقربون لحم الخنازير والأرانب إذا أنهم كانوا يتبعون المذهب الموسوي. كانوا لا يأكلون لحم حيوان ليس له ظلف مشقوق أو غير مجتر. بدأنا نذهب مع أمي لاجتماعات السبتيين التي كانت تعقد بعيداً في الريف. وكان أكثر ما يجذبنا كأطفال هو طعامهم الشهي ولكننا كنا نصغي أيضاً لما يقولون. كنا نجد عدداً من الزنوج إلا أن الأغلبية العظمى كانت من البيض. يعتقد السبتيون أن زمننا هذا هو آخر الزمان وأن نهاية العالم قد قربت ولكنهم أيضاً كانوا بشوشين وأطيب من رأينا من البيض. وقد بدأنا نلاحظ كيف يختلفون عنا ونتكلم عن ذلك عندما نعود إلى المنزل وكيف أن طعامهم ماسخ وليست به بهارات وأن لهم رائحة مختلفة.

في غضون ذلك كان ضباط الرعاية وراء أمي التي لم تعد تخفي كراهيتها لهم وعدم رغبتها في حضورهم، ولكنهم استغلوا حقهم القانوني في المجيء وكنت قد بدأت أفكر في طريقة كلامهم معنا وبذور التفرقة التي بدأوا يبثونها بيننا. كانوا يسألون: أنت أشطر أم أخوك؟ أو لماذا أنت مختلف عن الآخرين؟ أعتقد أنهم كانوا يرون أن حل «مشكلتنا » هو في وضعنا نحن الأطفال في بيوت تتبنانا وأن تلك هي مهمتهم وعندما عارضت أمي ذلك بشدة بدأوا يطاعنونها. كنت أنا أول هدف لهم، أنا أسرق فإذن أمي لا تقدر أن تعتني بي. كنا كلنا أطفالاً أشقياء في وقت أو آخر وأنا أكثر شقاوة من

الآخرين وكان ذلك من الأشياء الكثيرة التي بدأت تثقل كاهل أمي.

لا أدري متى بدأت الفكرة تخرج من أفواه موظفي الرعاية وهي أن أمي بدأت تفقد عقلها ولكني أذكر بوضوح وصفهم لأمي بأنها « مجنونة » حينما رفضت أن تقبل لحم الخنزير الذي قدمه لنا مزارع زنجي من الجيران. كان خنزيراً كاملاً وربما اثنين ومع ذلك رفضتهم. سمعناهم يقولون لها « مجنونة » في وجهها لرفضها لحماً جيداً . لم يستطيعوا أن يفهموا حتى عندما أوضحت لهم أنها لم تأكل لحم الخنزير في حياتها وأن ذلك محرم في دينها كمؤمنة بالمذهب السبتي. كانوا في وحشية النسور بدون شعور أو تفهم أو رحمة واحترام لأمي. قالوا لنا: « إنها مجنونة لأنها رفضت الطعام» في تلك اللحظة بدأ بيتنا ووحدتنا في الانهيار. بدأ الزمن الصعب وأنا لا نفع مني مع أنه كان بإمكاننا الصمود والبقاء مع بعضنا البعض. ومع كل سيئاتي وكل المشاكل والقلق الذي سببته لأمي، كنت أحبها.

اكتشفنا بعد مدة أن المسؤولين قد قابلوا عائلة يوهاناس وتحدثوا معهم بخصوصي ووافق آل يوهاناس على أخذي عندهم وجن جنون أمي حينما علمت بذلك مما جعل رجال الرعاية يختفون لمدة بعد ذلك. في غضون ذلك بدأ يزورنا في البيت رجل أسود ضخم من أهالي لانسينج. لا أعرف كيف ومتى تعرف إلى أمي وربما كان ذلك قد تم بواسطة صديق للطرفين ولست أذكر ماذا كانت مهنته لأن الزنوج في ذلك الزمن لم يكن لهم ما يمكن أن يسمى مهنة. غير أن الرجل كان أسود ضخماً يشبه أبي إلى حد كبير ولا داعي لذكر اسمه الآن. كان عازباً أمام أرملة عمرها ستة وثلاثون عاماً وحراً طليقاً ومن الطبيعي أن ذلك أعجب أمي لأنها لم تكن تقدر على تأديبنا بمفردها ومجرد وجود رجل كبير سيساعد في ذلك حتماً وإذا كان يعيل أيضاً فسيبعد ذلك عنا رجال الرعاية الاجتماعية.

كلنا تفهمنا ذلك من غير أن نقول أو على الأقل لم نعترض – تقبلنا الأمر بغير تردد وحتى بشيء من الدعابة فيما بيننا لأننا كنا نلحظ أن أمنا تتهيأ لزيارته لنا بالزينة ولبس أحسن ما عندها فهي ما زالت مليحة الشكل كما أن سلوكها كان يختلف إذ تصبح ضاحكة وسعيدة ، الشيء الذي أصبح نادراً. استمر ذلك لمدة عام فيما أظن وفجأة في سنة ١٩٣٦ أو ١٩٣٧ نبذ الرجل أمنا ولم يعد يزورنا وفهمت فيما بعد أنه انسحب هرباً من مسؤولية إطعام ثمانية أفواه. وحتى الآن أنا مقدر لموقف أمي والمعضلة التي وقعت فيها فقد كنا عبئاً ثقيلاً كما أنني متفهم لهروب ذلك الرجل من تبني مسئوليتنا. إلا أن ذلك كان صدمة شديدة لأمي. كانت بداية النهاية لها. بدأت تحادث نفسها وهي جالسة أو ماشية وكأننا لسنا من حولها وكان الأمر يسوء من يوم إلى يوم.

حينما رآها موظفو الولاية تضعف بدأوا في اتخاذ الخطوات العملية لأخذي من المنزل وصاروا يحدثونني أنني سأكون سعيداً ومرتاحاً مع آل يوهاناس وأنهم هنالك بما فيهم مسز أدكوك « والواد » الكبير يحبونني ويتمنون أن آتي لأعيش معهم. وقد كنت فعلاً أستلطفهم ولكنني لم أكن أريد ترك أخي ولفرد فقد كنت معجباً بأخي الأكبر. لم أكن أود أن أترك هِلدا التي صارت أمي الثانية أو فلبرت الذي يعاني من الفتاق والذي كان يتطلع إليَّ كأخيه وحاميه مثلما كنت أتطلع أنا إلى ولفرد. كذلك لم يكن هنالك ما يجعلني أترك أخوتي الأطفال يفون، وِزْلي وروبرت.

أصبحت أمي تتحدث إلى نفسها أكثر فأكثر وقلت استجابتها لنا كما قل شعورها بالمسئولية. أصبح المنزل أقل ترتيباً ومظهرنا فوضويًّا بينما صارت هلدا تطبخ الطعام لنا. بدأنا نحن الأطفال نراقب مرساة سفينتنا تخذلنا. كان شيئاً رهيباً لا تستطيع أن تضع يدك عليه ولا مهرب منه. كنا نشعر أن شيئاً مريعاً سيقع وبدأنا نحن الصغار نستند أكثر وأكثر على تماسك ولفرد وهيلدا، إخوتنا الكبار.

أخيراً أُرسلت إلى منزل آل يوهاناس وكنت ظاهرياً سعيداً. مازلت أذكر أنني وأنا أغادر المنزل مع موظفي الولاية ، سمعت أمي تقول شيئاً واحداً: « لا تدعهم يطعمونهم أي خنزير!» من جهة أخرى كان الوضع عند آل يوهاناس أفضل . شاركت « الواد » الكبير غرفته وبدأت بيننا صداقة. لكنه لا يمكن أن يقوم مقام إخوتي. كان آل يوهاناس متدينين وكنا أنا والفتى الكبير نصحبهم إلى الكنيسة. كانوا ورعين وينتمون إلى « الموجة المقدسة » حيث كان الواعظ والمصلون في الصلاة يقفزون عاليًا ويصرخون أكثر من المعمدانيين الذين أعرفهم. كانوا يغنون بأعلى أصواتهم وتتمايل أجسامهم يميناً ويساراً ويئنون ويضربون الدف وينشدون. كان الجو في الكنيسة عند الصلاة غريباً مع الأشباح والروحانيات تملأ الجو عندما خرجنا كلنا قاصدين البيت.

آل يوهاناس ومسز أدكوك كانوا يحبون صيد السمك ويأخذونني أنا و«الواد» الكبير معهم بعض أيام السبت لنخرج للصيد. كذلك انتقلت إلى مدرسة جديدة هي ثانوية غرب لانسنج الصغرى التي كانت تقع في وسط حي الزنوج وبها عدد قليل من الطلبة البيض لكن الفتى الكبير وأنا لم نكن لنختلط مع الطلاب الآخرين. كما كنا والفتى الكبير حينما نخرج نصطاد آل يوهاناس نضجر من مجرد الجلوس وانتظار السمك حتى يقرض الطعم أو يهز الصنارة وكنا نرى أنه لابد أن تكون هنالك طريقة أحسن لصيد السمك لكننا مع الأسف لم نكتشف تلك الطريقة.

كانت لمستر يوهاناس صداقات قوية مع رجال آخرين يخرج معهم أحياناً في أيام السبت لصيد الأرانب ويأخذوننا أنا والفتى الكبير معهم وكنت آخذ معي بندقية

أبي التي سمحت لي أمي بالاحتفاظ بها. كانوا يصيدون باستراتيجية معينة فالأرانب حينما يطاردها كلب تجري غريزيًا في دائرة مما يعني أنها ستمر آجلاً أو عاجلاً بنفس النقطة التي بدأت منها وهنا يختبئ الرجال في انتظار الأرانب تمر في تلك النقطة ثم يصوبون نحوها. فكرت في ذلك وخطرت لي خطة كنا بمقتضاها ننفصل أنا والفتى الكبير عنهم وننتظر الأرانب في نقطة يمر بها الأرنب قرينا قبل أن يصل قرب مكانهم. ونجحت خطتي كالسحر وصرت أرمي ثلاثة وأربعة أرانب قبل أن يتحصلوا هم على واحد والمدهش أن أيا من الرجال لم يفهم لماذا نتحصل نحن على صيد أكثر منهم. كانوا يصرخون إعجاباً بي وكان عمري حينها حوالي اثنتي عشرة سنة. كل ما فعلته هو أنني طورت إستراتيجيتهم وكانت بداية درس مهم لي جداً في الحياة وهو أنه طالما كان هنالك شخص يبزك بينما أنتما في نفس المجال فاعلم أنه يعمل شيئاً فات عليك فابحث عن ذلك الشيء.

كنت أقوم بزيارة بيتنا كثيراً وأحياناً يأتي معي « الواد » الكبيرو/ أو أحد آل يوهاناس وكان اصطحاب شخص معي يسرني لأن الزيارة تصبح أقل إيلاماً للنفس بذلك.

بعد مدة قصيرة بدأ رجال مصلحة الرعاية الاجتماعية يخططون لأخذ بقية إخوتي والحاقهم ببيوت أخرى وبدأت حالة أمي تزداد تدهوراً وصارت تتحدث إلى نفسها طوال الوقت كما بدأ جمهور من الرجال البيض يزور بيتنا ويسألون جميع أنواع الأسئلة. كان بعضهم يزوروني عند آل يوهاناس ويسألونني في البلكونة، في الصالة أو هم جلوس في سياراتهم . في النهاية أصيبت أمي بانهيار تام ووقع القاضي باسمه على الأمر القضائي الذي بموجبه أخذوا أمي إلى مستشفى الأمراض العقلية في مدينة كالامازو في ولاية ميشجان التي تبعد حوالي سبعين ميلاً من لانسنج وحوالي ساعة ونصف ساعة (بالبص). أصبح لقاضٍ يدعى ماكلان في لانسنج سلطة علىّ وعلى إخوتي وأصبحنا « أبناء الحكومة » وله مطلق السلطة علينا. رجل أبيض له سلطة على أطفال رجل أسود! ليس ذلك إلا عبودية حديثة مقننة مهما حسنت النوايا.

بقيت أمي في نفس المستشفى لما يقارب ستة وعشرين عاما. كنت أنا في ميشجان أذهب لأزورها الفنية بعد الفنية وليس هنالك شيء هزني بعمق مثلما هزنتي حالتها في المستشفى. (في عام ١٩٦٣ أخرجناها من المستشفى وهي اليوم تعيش في لانسنج مع أخي فلبرت وأسرته.) كانت حالتها أسوأ مما لو كان مرضها عضوياً لأنه في تلك الحالة ربما عُرف سبب الداء وعرف له دواء أو علاج. كنت كل مرة حينما يأخذونها عند نهاية الزيارة، أراها وقد أصبحت مجرد حالة أو رقم ويزداد أساي بذلك.

كانت آخر زيارة لي وأنا أعلم أنها ستكون آخر مرة أزورها هنالك، عام ١٩٥٢

وكان عمري حينها سبعة وعشرين عاماً. أخبرني أخي فلبرت أنها تعرفت عليه نوعاً ما وفي لحظات متقطعة عند آخر زيارة له لكنها لم تتعرف عليّ مطلقاً.

فقط حملقت فيّ ولم تعرف من أنا.

كان ذهنها في مكان آخر وأنا أتحدث إليها وأحاول الوصول إلى عقلها. قلت لها: «أماه ! أتعرفين أي أيام الأسبوع هذا اليوم ؟ » قالت وما زالت تحملق فيَّ : « كل الناس قد ذهبوا .»

لا أستطيع أن أصف شعوري. المرأة التي أتت بي إلى هذا العالم، التي رعتني ونصحتني وغسلتني وأحبتني، لا تعرفني! كنت كمن يحاول أن يطلع جبلاً من ريش . أنصتُ إليها « تتحدث » ولكن لم يكن بإمكاني أن أعمل شيئاً.

إنني أؤمن بحق أنه إذا كانت هنالك أسرة حطمتها وكالة حكومية، فقد كانت تلك أسرتنا. لقد أردنا وحاولنا أن نبقى سويًّا ولم يكن هنالك ما يدعو إلى هدم بيتنا ولكن الوكالة والمحاكم والطبيب أعطونا الضربات القاضية وليست حالتنا هي الوحيدة من نوعها.

كنت أعلم أنني لن أعود لرؤيتها مرة أخرى لأن ذلك سيجعل مني شخصاً متوحشاً وخطيراً لما أعلمه من نظرتهم إلينا كمجرد أرقام، مجرد حالة في دفاترهم وكأننا لم نكن بشراً. ولعلمي أن أمي لم تكن لتصبح مجرد إحصائية لولا فشل المجتمع والنفاق والجشع وفقدان الرحمة والعطف. لم تبق لدى رحمة أو تعاطف مع مجتمع يسحق البشر ثم يعاقبهم لأنهم لم يستطيعوا تحمل الضغط.

لم أكن أتحدث عن أمي مع أي شخص إلا نادراً لعلمي أنني قد أقتل أي شخص بدون تردد لأي ملاحظة غير كريمة قد يتفوه بها أحدهم عن أمي. لذلك وعن عمد لم أكن أفتح الموضوع مع أي شخص.

عندما تحطمت أسرتنا في عام ١٩٣٧ سمحوا لولفرد وهلدا أن يبقيا في المنزل ذي الأربع غرف الذي بناه أبي لبلوغهما سن الرشد. أما فلبرت فقد وضعوه مع أسرة أخرى في لانسنج تدعى السيدة هاكت بينما وضع ريجنالد ووزلي مع أسرة أخرى تدعى آل ويليامز الذين كانوا من أصدقاء أمي كما أخذت يفون مع روبرت ليعيشا مع أسرة أصلها من جزر الهند الغربية تعرف بآل ماكجوير. ومع أننا كنا منفصلين فقد كنا على اتصال وثيق ببعضنا البعض، في لانسنج، في المدرسة وخارجها وحيثما سنحت لنا الفرصة وبالرغم من الحواجز الاصطناعية والبعد فقد استمررنا في تعاطفنا وحبنا لبعضنا البعض.